المضمون السوسيولوجي في رواية السطور الأخيرة

الباحث طالب الدكتوراه

وليد عبد الكريم محمد النويني

طالب دكتوراه في جامعة فردوسي مشهد – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – قسم اللغة العربية

Waleed.al-kareem.inj@atu.edu.iq

الأستاذ المشرف الدكتور :

أحمد رضا حيدريان

جامعة فردوسي مشهد – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – قسم اللغة العربية وآدابها – إيران

heidaryan@um.ac.ir

الأستاذ المساعد المشرف:

أ.د ميساء صلاح وادي السلامي

جامعة الكوفة – كلية التربية الأساسية – العراق

Maysaa.alsallami@uokufa.edu.iq

الكلمات المفتاحية: السوسيولوجي، الرواية الاجتماعية، السطور الأخيرة، العادات الخاطئة .

كيفية اقتباس البحث

النويني ، وليد عبد الكريم محمد، أحمد رضا حيدريان، ميساء صلاح وادي السلامي، المضمون السوسيولوجي في رواية السطور الأخيرة ، مجلة مركز بابل للدراسات الانسانية، تشرين الثاني ٢٠٢٥،المجلد:١٥ ،العدد:٦ .

هذا البحث من نوع الوصول المفتوح مرخص بموجب رخصة المشاع الإبداعي لحقوق التأليف والنشر (Creative Commons Attribution) تتيح فقط للآخرين تحميل البحث ومشاركته مع الآخرين بشرط نَسب العمل الأصلي للمؤلف، ودون القيام بأي تعديل أو استخدامه لأغراض تجارية.

مفهرسة في Indexed
IASJ

مسجلة في Registered
ROAD

The sociological content of the novel The Last Lines

PhD student
Walid Abdul Karim Muhammad Al-Nuwaini
PhD student at Ferdowsi University of Mashhad, Faculty of Arts and Humanities, Department of Arabic Language

Supervising Professor: Dr. Ahmad Reza Heidarian
Ferdowsi University of Mashhad – Faculty of Arts and Humanities – Department of Arabic Language and Literature – Iran

Supervising Assistant Professor:
Prof. Dr. Maysaa Salah Wadi Al-Salami
University of Kufa, College of Basic Education, Iraq

Keywords : sociological, social novel, last lines, Wrong habits.

How To Cite This Article
Al-Nuwaini, Walid Abdul Karim Muhammad, Ahmad Reza Heidarian, Maysaa Salah Wadi Al-Salami, The sociological content of the novel The Last Lines, Journal Of Babylon Center For Humanities Studies, November 2025,Volume:15,Issue 6.

This is an open access article under the CC BY-NC-ND license (http://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International License.

Abstract

The connection of the novel with society makes it have a specific nature of the events taking place in society in response to the people active in it. It also expresses a truthful and accurate expression of the reality of human conflict, and reveals its truth according to the writer's point of view, as the novelistic experience revealed a diversity of narrative styles. The novel is the method. The only one in which social reality can be expressed and embodied; Because it lists precise details about living reality.

The novel (The Last Lines) depicted the social customs that spread in Iraqi society and took root in it, and everything that surrounds the character and affects his actions and behaviors, as it dealt with issues and problems that exist and are widespread in Iraqi society, such as: issues of marriage, treatment between spouses, childbearing, and advice that can It is presented to them to reduce the problems they face in their marital life, as well as issues of elections, wars, etc. The novel is socially accurate because of the social aspects it presents and images that reveal special relationships linking a group of groups, as the novelist presented to us social images in their finest details to reveal society through them. In which a group of problems prevailed that became social diseases that spread throughout the prevailing Iraqi society at that time.

ملخص البحث

إن ارتباط الرواية بالمجتمع جعلها ذات طبيعة محددة من الأحداث تجري في المجتمع ردا على الأشخاص الفاعلين فيها، كما تعبر تعبيرا صادقا دقيقا عن واقع صراع الإنسان، وتكشف عن حقيقته حسب وجهة نظر الكاتب، إذ كشفت التجربة الروائية عن تنوع في أنماط السرد، فالرواية هي الطريقة الوحيدة التي يمكن التعبير فيها وتجسيد الواقع الاجتماعي؛ لأنها تسرد تفاصيل دقيقة عن الواقع المعيش .

فقد صورت رواية (السطور الأخيرة) العادات الاجتماعية التي انتشرت في المجتمع العراقي وتجذرت فيه، وكل ما يحيط بالشخصية ويؤثر في أفعالها وسلوكياتها، إذ إنها تناولت قضايا ومشاكل موجودة ومنتشرة في المجتمع العراقي مثل : قضايا الزواج، والمعاملة بين الزوجين، والانجاب، والنصائح التي يمكن أن تقدم لهم للحد من المشاكل التي تواجههم في حياتهم الزوجية، وكذلك قضايا الانتخابات والحروب وغيرها، فالرواية اجتماعية دقيقة لما قدمته من مظاهر اجتماعية وصور تكشف عن علاقات خاصة تربط بين مجموعة من الفئات، إذ قدم لنا الروائي صور اجتماعية في أدق تفاصيلها ليتبين من خلالها المجتمع الذي سادت فيه مجموعة من المشكلات التي أصبحت بمثابة الأمراض الاجتماعية التي تفشت في المجتمع العراقي السائد آنذاك .

المقدمة

يعد الإبداع الأدبي عملا محاكا بين الواقع وخيال الأديب الذي ينطلق من الموجودات، والأديب في إبداعه الأدبي يحاكي الواقع الاجتماعي انطلاقا من الحالة الاجتماعية التي تحيط به، فشعور الأديب أو انفعالاته تتأثر بالحالة الاجتماعية التي تسود المجتمع، إذ تعد الرواية من

أهم الأشكال الأدبية تعتبر وسيلة من وسائل التعبير عن الأفكار، وما يختلج في ذهن الأشخاص مستمدة مادتها من الإنسان والمجتمع، إذ إن رواية (السطور الأخيرة) رواية اجتماعية، حاول من خلالها الروائي معالجة قضايا تركز على المجتمع العراقي بكل ما يحمله من هموم ووقائع اثقلت كاهله، إذ كانت قضايا المجتمع بمثابة الدعامة والركيزة الأساسية التي يعول عليها الروائي في عمله الإبداعي، فهي تربط بين مجموعة من الفئات الاجتماعية، كما تتضمن صراعا بسبب المشاكل التي سادت في المجتمع، إذ يمكن للكاتب أن يجذب القارئ من خلال القضايا الاجتماعية المتعددة المأخوذة من الواقع الاجتماعي، فيعالج فيها الكاتب العديد من القضايا التي تخص المجتمع لتصوير العادات والأخلاق، إذ يتصدى فيها لرسم جانب من الحياة الإنسانية ويترك شخصياته ضمن اطار اجتماعي معين، إذ هي ثمرة للبنية الواقعية السائدة في المجتمع وترجمة للواقع الذي نعيشه .

تتلخص هذه الدراسة في البعد السوسيولوجي، مفهوم الرواية الاجتماعية لدى النقاد الغربيين، مفهوم الرواية الاجتماعية لدى العرب، البعد السوسيولوجي دراسة تطبيقية .

(البعد السوسيولوجي)

إن التشتت الحاصل في مجتمعنا العربي والعراقي بالتحديد هو نتيجة الحروب والغزوات فضلا عن تداخل الثقافات، أدت إلى تهشيم بنية المجتمع وتشتت أفراده، وضياع الهوية العربية باتت تتخر بالتقاليد والعادات العربية الأصيلة وضياع الحكمة بالتصرف إذ " إن الواقع الأليم للمجتمع العربي، يعكس التناقض الرهيب بين المجتمع السياسي، الذي تعمق عزلته الأيديولوجية، والمجتمع المدني الذي حطم لقهر لحمته وتضامنه" [١].

إن البعد الاجتماعي "يتمثل في شبكة العلاقات الاجتماعية، ومجموعة العادات والتقاليد والأعراف التي تنبئ عن المصدر الرئيسي للقيم المحركة لهذا الفرد أو ذلك وكذلك عوامل الانتماء ووسائل الضبط الاجتماعي، والمكانة الاجتماعية، والمراكز الاجتماعية والأدوار التي يقوم بها الناس"[٢].

مفهوم الرواية الاجتماعية لدى النقاد الغربيين

يبدو ان الظاهرة المجتمعية شغلت حيزا كبيرا لدى (اوغست كونت)، الذي يعد أول من اخترع (علم الاجتماع) في بحثه (الفلسفة الوضعية) بالجزء الرابع منه، فقد دل على علم المجتمع، واستخدم في هذا الصدد "الفيزياء الاجتماعية المستعمل سابقا من قبل هنري دو سان سيمون وهي من قبل هوبس لقد استبدله بتعبير علم الاجتماع لأن الرياضي البلجيكي كيتولي قد استخدم

تعبير الفيزياء الاجتماعية ليدل على الدراسة الاحصائية للظاهرة الخلفية (١٨٣٦) الأمر الذي عده كونت محاولة فاجرة لتملك هذا التعبير"[٣].

لقد ظهرت الرواية الاجتماعية قديما مع الغربيين أولا، كما عرفها بعض النقاد منهم روجر هينكل بأنها: "تقوم بتصوير حياة مجتمع من المجتمعات ووصفها عبر فترة زمنية معينة ووصفها كليا شاملا، في هذا الشكل الروائي يعيد المبدع تشكيل ملامح عالم يماثل العالم الذي نعيش فيه وتقديم شخصيات تشبه شخصيات البشر في الحياة المعيشة"[٤]

كما يقول أيضا: "تقدم كمية كبيرة من التفاصيل الدقيقة حول طبيعة المكان، إذ يتضح للقارئ إحساسا قويا من خلال الوصف المستفيض للحجرات والمنازل والقرى وشوارع المدينة والمباني"[٥].

فيما يرى رولان بارت أن الرواية الاجتماعية "عمل قابل للتكييف مع المجتمع، وان الرواية تبدو كأنها مؤسسة أدبية ثابتة الكيان، فهي الجنس الأدبي الذي يعبر بشيء من الامتياز عن مؤسسات مجموعة اجتماعية بنوع رؤية العالم الذي يجري معه ويحتويه في داخله"[٦]. ويتضح من هذا القول: إن الرواية الاجتماعية هي المفهوم الأكثر تأثيرا في المجتمع من الوسائل الأخرى وتحدث تغيرا ايديولوجيا في بنية المجتمع.

مفهوم الرواية الاجتماعية لدى العرب

عرفت الرواية الاجتماعية عند العرب من قبل مختلف النقاد كغيرهم، ولوحظ الاهتمام الكبير بهذا النوع من الروائيين نظرا للقضايا العديدة التي يعيشها المجتمع العربي بسبب تأزم وضعهم وتدهور حالتهم الاجتماعية. وأبرزهم (نبيل راغب) الذي تناول فكرة ارتباطها بالواقع "كأن تدرس مثلا أثر الوضع الاقتصادي والاجتماعي في فترة ومكان معينين على السلوك الانساني، كما تعالج أيضا بعض المواضيع الاجتماعية كالعنصرية والفقر والظلم والتعسف، وقضايا الزواج والطلاق والحرمان ..."[٧] .

فالرواية الاجتماعية تعد هوية "تتعلق بمعلومات حول وضع الشخصية الاجتماعية وأيديولوجيتها وعلاقتها الاجتماعية (المهنة: طبقتها الاجتماعية: عامل، الطبقة المتوسطة، برجوازية، إقطاعي، وضعها الاجتماعي: فقير، غني، أيديولوجيتها: رأسمالي، أصولي، سلطة ..."[٨]. أي إن البعد الاجتماعي للشخصية متعدد الجوانب، فهو يركز على الشخصية من خلال محيطها الخارجي وعلاقاتها بالشخوص الأخرى، وكذلك مكانتها الاجتماعية وأوضاعها، موقعها الاجتماعي والثقافي وكل ما يتمحور حولها ويؤثر فيها، كما ركزت المدرسة السيكولوجية على هذا البعد لأهميته في تحديد شخصية كل فرد حيث أن المحيط البيئي والثقافي له دور كبير في بناء هذه الشخصية على حسب قدرتها في التعامل مع الظروف المعيشية. ويوضح شريبط أحمد

شريبط البعد الاجتماعي بأنّه: "يهتم بتصوير الشخصية من حيث مركزها الاجتماعي، وثقافتها، وميولها، والوسط الذي تتحرك فيه"[٩] فالشخصية مرتبطة بوسط اجتماعي وبيئة معينة، تصارع فيه لتكسب الرفعة والتفوق، فالإنسان في أصله كائن اجتماعي يعيش في مجتمع معين تتلاءم ظروفه وفق طبيعته باختلاف طبقته (فقير، غني، قوي، ضعيف) .

إذا البعد الاجتماعي يتمحور في كل ما يحيط بالشخصية ويؤثر في أفعالها أو سلوكياتها من خلاله نتمكن من معرفة كل ما يتعلق بهذه الشخصية من مستوى تعليمي، المرجعيات الدينية والفكرية، الحالة المادية، الطبقة الاجتماعية. وكذلك فهي "تصف المجتمع وتصور عادات أهله وأعمالهم وأخلاقهم وعلاقتهم ببعضهم البعض في ظروفهم الاجتماعية، وبيئتهم التي تطبعهم بطابعها الخاص"[١٠].

وبهذا فان الرواية الاجتماعية كانت الحاضنة للمجتمع ولما يمر به من قضايا وتغيرات تطرأ عليه، وهنا يمكن للروائي أن يبني قالباً فنياً يسهم في توضيح ايديولوجية المجتمع.

البعد السوسيولوجي (دراسة تطبيقية)

إن الرواية الاجتماعية أحدثت تطوراً كبيراً في ايديولوجية المجتمع العراقي، فقد نالت استحسان مختلف الفئات في المجتمع، مما ساعد على انبثاق عدد لا يضاهى من كُتاب هذا النوع من الرواية. وقع اختيارنا على رواية للدكتور حيدر فالح سلمان وعنوانها (السطور الأخيرة)، يعمد الروائي فيها إلى مراجعة العادات الخاطئة التي استشرت في المجتمع العراقي وتجذرت في بنيته من خلال نقده للمعتقدات والموروثات المترسبة، محاولة منه لقص جذور الحالات السلبية التي أطلقها عن طريق رسائل من الجد إلى حفيده في المضمون الروائي، وسعى فيها أيضاً إلى إرسال رسائل واضحة للمتلقي البسيط ومبطنة في نص يدركه المتلقي الحاذق لمعالجة الواقع الذي يعيشه المجتمع عن طريق كل فئات القراء. تدور الرواية حول علاقة بالغة التأثير بين رجل عجوز وحفيده في إحدى القرى، والقرى هنا تمثل المجتمع، فيقوم الجد بنقل خبرته إلى حفيده عن طريق القصص والحكايات والمواعظ والنصح التي تدور بينهما.

معاملة الزوجة

تنفتح الرواية على أولى التقاليد التي باتت نمطاً يسلكه بعض المتزوجين، إذ يقول "حربٌ مع أهل تلك القرية الغريبة.. القريةُ التي أعيش فيها.. غريبة في عاداتها.. عجيبة في تقاليدها.. مبهمة في أفكارها.. ففيها يستحي الزوج من مغازلة زوجته أمام أطفاله.. لكنه لا يستحي أبداً من ضربها أمامهم.." يشير الروائي واصفاً القرية التي يعيش فيها، أي المجتمع بالغريب والعجيب الذي يخجل من مغازلة زوجته أمام أطفاله، وهذه أولى الرسائل التي يسعى الروائي في إيصالها

للمتلقي عن طريق ما آل اليه الوضع في الآونة الأخيرة وتحديدا السنوات الأخيرة. فالرسالة الأولى هي أن معاملة الزوج لزوجته بلطف وغزل أمرٌ معيب ومخجل. والرسالة الثانية هي استشراء تعنيف المرأة والزوجة بالتحديد الذي أصبح ظاهرة رائجة في تلك القرية (المجتمع) ومنها المجتمع العراقي، وهذا ما يشير إليه الروائي من غرابة العادة وعجب التقاليد.

الانجاب

وفي موضع آخر نلاحظ الروائي وعِبر الجد يشير إلى موضعا آخر قد فاض المجتمع العراقي بجوفه الا وهو الانجاب، فيقول: "المهم يا ولدي ، قبل أن تفكر بإحضار طفلٍ جديدٍ إلى هذا العالم، تذكر دائما أنك غير مُجبر على الإنجاب... لكن إذا أنجبت، فأنت مُجبر على التربية... والتربية تتطلب وقتاً وجهداً كبيرين، وتمتد لسنوات طويلة... فلا بد أن تكون حذراً كالملاحِ الحكيم، يدرس الأمواج قبل أن يرفع الشراع... يتأمل في مسار الرحلة قبل أن يخوض فيها"[١١] شرع الدين الإسلامي مثله كمثل الأديان الأخرى قضية الزواج وقد تم توضيح من المؤهل لذلك، وشرع أيضا بالإنجاب ونصت آية قرآنية على ذلك ضمن المستطاع، إلا أن ما ساد في المجتمع هي كثرة الإنجاب وعدم القدرة على التربية، وهذا ما خلق مجتمعا مشتتا أسرياً فيسعى الروائي لمناقشة ذلك ويذكر جملة من الأسباب أهمها: هي الخوف من ملامة الأهل والأقارب وهذا ما يمكن عده حديثا بالثقافة السائدة في المجتمعات العربية والعراقية على وجه الخصوص، إذ إن الناس تلوم كل من لم ينجب والذي انجب بقلة وهذا من ضمن المفارقات التي يعيشها المجتمع العراقي. إذ يعبر الروائي بما يتناوله في منجزه عمّا أصبح عليه المجتمع العراقي من عادات ومعتقدات خاطئة ومخالفة للمنطق السليم.

اختيار الصديق

ينتقل الروائي من معاملة الزوجة والانجاب وطرق معالجتها في الرواية إلى الإرشاد والوعظ في اختيار الصديق، ليسمو هذا المنجز بحفنة من النصائح التي تلهم الإنسان في تغيير مساراته وتياراته التي اكتسبها من الشباب والتي هي من ضمن العادات الخاطئة فيرشد بموضع آخر عن اختيار الصديق، ليقول: " كُن قريبا من جميع الناس يا ولدي، لكن عليك أن تختار بحكمةٍ من يستحق أن يكون صديقاً... الصديق من يصدقك القول والنصيحة... فالمرء غنيٌ بأصدقائه، والصداقةُ ذات منزلة أرقى وأنبل من الحب... كن حذرا من اختيار أصدقائك، فالصداقة المزيفة تكون وكراً للخيانة... الصديق الذي تشتريه بالهداية، سيأتي يوم ويشتريه غيرك"[١٢] في هذا النص المقتبس من الرواية والذي يتميز بالشفافية والوضوح في النصح والإرشاد يسترعي الجد انتباه حفيده باختيار وانتقاء الأصدقاء بعناية وحذر، فضلا عن أن المؤلف بأحيان

متفرقة حاول أن يستخدم أسلوب الشفافية مع المتلقي وهذا يمكن عده من ضمن شمولية الرواية في مخاطبة المتلقي على اختلاف فئاتهم.

الحجاب

يسعى الروائي إلى تغطية أغلب المساحات التي تحمل انطباعا معاكسا للحقيقة عن طريق نقده في مساحة الرواية الورقية طامحا بالأثر الذي تتركه في نفس المتلقي، وتصحيح المسار الذي يسلكه بعيدا عن المتأدلجين ضمن نطاق الخطأ، فيقترب للموضوعات بشكل عام ثم يواصل طريقه نحو الثيمات الأكثر جرأة، والتي سببت فجوة كبيرة في تاريخ العراق الحديث، أي الألفية الأخيرة. فيقول متحدثاً مع رجل أربعيني وبجواره حفيده:

"ما السبب الذي يدفعك لإزعاج فتيات القرية.. والتربص بهن كظلام يتوارى بين أرجاء الليل.. والتضييق عليهن، ومعاملتهن بشدة واجبارهن على ارتداء الحجاب؟ إنك تُحول الحجاب من رمز للإيمان إلى رمزٍ للقهر"[١٣]

ليجيبه الآخر قائلاً:

"الحجابُ فرضٌ ديني.. لابد لنساء القرية وفتياتها الالتزام به.. طهارة للنساء وعفة للرجال" .

"_إذن أنت تقرُ بأننا قد فشلنا في تربية أولادنا، فقمنا بإخفاء بناتنا.. فلفلفنا الفتاة بأقمشة، وأجبرناها على وضع خرقة على رأسها لتشد بها شعرها.. هذا ما تريد قوله يا بُني! نجتثُ أجنحة المرأة عمدا.. ثم نتباكى لأنها لا تستطيع الطيران.. أهذا هو الدين الذي تتحدث عنه؟

_ نعم هذا هو الدين وهذه هي الشريعة

_ مَن الذي أعطاك الحق بذلك؟ من أنت لتجعل نفسك بديلا عن إله الكون؟

_ لا بُد من زمرة صالحة، تأخذ على عاتقها تطبيق وصايا الله.. وتجبر الناس على تنفيذ شرعه، حفاظا على الأخلاق، وحرصا على عفة وطهارة النساء..

_ فمٌ يُسبحُ ويدٌ تذبح! زمرةٌ تُظهر التقوى والورع وتُخفي الشر والإثم"

يقدر الروائي الموضوعات التي باتت موضع جدلا بين عامة الناس، إذ يسعى إلى توضيح أمور عديدة يشارك في ثيمتها كل فئات المجتمع موكلين الأمر إلى رفض الدين لهذه الظاهرة، فيحاول توضيح مفاهيم الدين وإبعاد الشبهات عنه، وأهمها تلك الشبهات التي تروّج بأن النص القرآني تسود فيه لغة العنف والاضطهاد. وعدم الولوج بالمفاهيم التي تتعلق بالعبد وربه، مشيرا إلى أن الدين والإله أسمى من أن يجعل خليفة له يطبق أحكامه نيابة عنه، عن طريق ازعاج الفتيات غير المحجبات والقسوة عليهن لعدم ارتداءهن الحجاب، واتباع أساليب شديدة نهى الدين

الإسلامي عنها. إن الرسائل التي يشير لها الكاتب عن طريق الجد الرجل الحكيم، والرجل المتشدد دينيا: هي كما أسلفنا ضرب للمعتقد الديني المتشدد ومنطق فهمه.

وفي موضع آخر من النص آنف الذكر يشير الروائي إلى المتلقي بأن بعض المحسوبين على الدين الذين يسبّحون ويظهرون الدين والورع ما هم إلا مجموعة من الضالين سلكوا طريقا مظلما وصدقوا بأنهم هم المحسنين الذين يطبقون تعاليم الإسلام علنا، وفي الخفاء يقتلون وينهبون ويخفون أيضا الآثام والزور وهي رسالة واضحة لسائر المتلقين باختلاف فئاتهم، وأيضا ذات مضمون إيديولوجي يمس فيها المؤلف طواطم بعض من رجالات الدين ويوصي بعدم الانجراف خلفهم واتباعهم وترك هذه الأمور إلى العقل والحكمة في تمييزها.

يكمل قائلا: "إنه أحد الذين يظنون أنهم ظل الله في الأرض.. وقد تجسد الله فيهم.. يتصورون أنهم أصحاب الحقيقة الوحيدة.. فمن خالفهم سيكبه الله في النار خالداً فيها أبداً.."[١٤]

نصائح

يسرد الروائي جملة من النصائح من قبل الجد لحفيده عن القرية التي يعيشون فيها، وهي في الحقيقة نصيحة لقراء هذا العمل الأدبي سيما أنها تسمو بالحكمة، وتتفرد بالموعظة، وتنسجم مع الواقع الاجتماعي الذي نعيشه :

"يا ولدي.. كلما نضج عقل المرء وتعمقت مفاهيمه، وصل إلى فهمٍ أعمق لمعنى الحياة.. فيشعر برغبةٍ قويةٍ في الانعزال، واعتناق الصمت، والابتعاد عن زخم العالم الصاخب.. حينما يتعلم الإنسان كيف يسبر أغوار ذاتهِ ويبحث في عمق نفسه، يجد أنَّ الصمت يمكن أن يكون رفيقاً ملائماً لهذه الرحلة الداخلية..

بينما يزدهر وعيهُ وتتفتح افقهُ، يكتشف أن الانعزال ليس هروباً من الواقع، بل هو فرصة للتركيز والتأمل.. يدركُ أن هناك حكمة في الابتعاد عن الضجيج والتشتت.. يبدأ يختارُ الصمت كوسيلةٍ للتعبير والاندماج مع الذات.. ويدرك حينها أن الكلمات ضعيفةٌ للتعبير عما يكون في داخله من أفكار معقدة وتجارب عميقة..

حينها يعيش الإنسان في صمت إلى الأبد.. فيظن الناسُ أنه مريضٌ مكتئب، لكن في الحقيقة إنها لحظات ارتياحٍ وطمأنينة بعيداً عن أولئك الذين يحشرون أنوفهم بكل شيء.. فمقامك يا بُني حيث أقمت نفسك، لا حيثُ أقامك الناس، وغيابٌ تحفظُ فيه كرامتك، خيرٌ من حضورٍ تفقد فيه قيمتك..

إن أردت النجـاح، فـاترك المعـارك الصـغيرة للمقـاتلين الصـغار.. فلـيس كـل البشـر يستحقون أن يُلتفت إليهم.. وإن أحببت السعادة، فلا تأخذ ما يقوله الناس على محمل الجد، ولا تُثقل كاهلك بالقيل والقال..

لا تلقِ هموم الحياة على عاتقك، وإلا ستُمسخ شخصيتك وتتغير ملامحها.. سيخلقُ المجتمع نسخةً منك، لا صفاتها صفاتك ولا أفكارها أفكارك، ولا أخلاقها أخلاقك.. فكُن أنت وتمسك بنفسك، وتشبث بها بعزيمةٍ قوية، كما تتشبث الطيور الكواسر بفريستها..

فهذه القرية يا بني، لا تحب التلقائي أبد الدهر.. وترفض العفوية الدهر الداهرين بل العكس.. إنها ترضخ مبتهجة للنفاق والرياء.. وتخضعُ راضية للتملق والمداهنة.. فإن استطعت أن تخرج من معارك الحياة.. بقلبٍ نقيٍ وروحٍ طيبة.. فإنك محظوظٌ، قد حالفك النجاح..

التزم جانب الحذر، وكن حريصاً، محافظاً على ضميرك.. فإن لم تشعر يوماً بتأنيب الضمير، ولا بعذاب الضمير، ولا بوخز الضمير، فتأكد أن المجتمع قد مسخ ضميرك وشوَّه صورتك.. وربما أصبحت واحداً منهم، تتلاشى في القطيع كما يتلاشى الحبلُ في شباك الصياد..

قطيعُ غنمٍ أو قطيعُ إبلٍ أو قطيعُ بقر.. لا يهم أي نوع من القطيع.. المهم أن ضميرك قد تصلَّب، وقلبك قد تحجَّر، وعقلك قد تصحَّر.. فبدأت تأكلُ مثلهم.. تفكرُ مثلهم.. تقتلُ مثلهم.. تذبح مثلهم!

إياك أن تكون كذلك.. كن خارج السرب، كمن يطيرُ بأجنحتهِ الخاصة في سماء الحياة.. مُختلفاً عما يُحيط بك.. فلا تكن كسائر أولئك القوم.. ولو أمسيت وحيداً منعزلاً في أرضٍ أخرى.. سماء أخرى.. مياه أخرى.. لا تدعهم يعرفون ما يدور في خلدك.. لو ابتعدت عنهم، ستكشف أن البعض بلا فائدة، بلا جدوى ولا طائل.. فليس كل البشر هم بشر..

فمِن حيث الفهم والبصيرة.. والوعي والإدراك.. يُقسم البشر لثلاثة أنواع.. النوع الأول يولد واعياً.. فاهماً والنوع الثاني يجتهدُ ويثابرُ.. ليصبح واعياً.. فاهماً.. أما النوع الثالث فيسببُ مشقةً وأسى للنوع الأول والثاني.."[١٥]

يبدأ الجد مخاطباً حفيده بياء المخاطبة وفي الحقيقة هي مخاطبة لكل متذوقي هذا العمل، ليخبره ويخبرنا بأن كل من وصل إلى النضج العقلي والحكمة في الحياة التي يعيشها، ليس كما نعرف بأنه يعاني من عقد نفسية أو ما ساد في المجتمع بأنه مجنون على العكس من ذلك هو رجل تصالح مع نفسه وابتعد عن المجتمع المكتظ بالناس مختلفي العقول والأذواق.

يوصي بمقطع آخر.. الابتعاد عن المشاكل التي يمكنها أن تصغر شخصيتك وأن تضعك في موضع لا يحمد عقباه مع تلك النفوس التي لا تشبهك ويكون الحوار معها عقيماً، وكن بسيطاً ولا تأخذ أولئك الناس على محمل يضر بك.

إن الاسلوب المميز والكلمات البسيطة والرسائل الواضحة التي أراد الكاتب إيصالها للمتلقي بمختلف عقولهم يزيد من رونق العمل ويضيف نكهة لهذا الانتاج الأدبي.

وبالتالي فالروائي يرى ان المعتقدات والموروثات القديمة التي يعدها على لسان بطله الجد غير صائبة، ويسعى لعلاجها عن طريق طرحها في منجزه الروائي.

ختان البنات

وفي موضع آخر يجرؤ الروائي بطرح ثيمة حساسة تكاد لا تخلو منها المجتمعات العربية على وجه العموم، والمجتمع العراقي على وجه الخصوص. (الختان) إذ انقسم المجتمع إلى نصفين منهم من يؤيد هذا الفعل بداعي الشرائع الدينية، ومنهم قد أنكروا صلة القرآن بهذا الموضوع معللين ذلك بأن القرآن لم يحرم هذا الفعل، واستندوا في عدم تحريمه إلى تطبيقه. وهنالك جماعة أخرى ساهموا في الحد من هذه الظاهرة التي يعدوها ظاهرة غير دينية وغير أخلاقية وبالتالية هي غير إنسانية، تتنافى مع الذوق العام. والحقيقة في خلاف ختان الإناث أهو حلالا أم حرام يشير عامة الاعلام في الدين إلى أن الخلاف ليس في استحباب الختان وإنما الخلاف في وجوبه. وجاء في الرواية نموذجا عن هذه الظاهرة، فتقول والدة البنت التي أرادوا ختانها قبل أن تنتحر قائلة للجد صاحب الحكمة: "لقد أخبرني زوجي بأن أهله قد قرروا إجراء عملية الخِتان لابنتي الصغيرة عصر هذا اليوم.. رغم أنني أدرك تقاليد وثقافات الأسرة، إلا أنني كنت بحاجة لفهم أكثر حول السبب وراء هذا القرار.." وهذه الظاهرة التي أشار الروائي لها شبه معدومة في دولة العراق ما عدا إقليم كردستان العراق التي اعطت نسبة نراها في وقتنا الحالي قد ضاقت وانحسرت إلى نسبة ضئيلة. والاحصائية أجرتها الأمم المتحدة "في عام ٢٠١١ إلى أن نسبة ختان الإناث في إقليم كردستان تفوق ٤٤ بالمائة، لكن هذه النسبة في محافظات العراق الأخرى أقل من ١ بالمائة". ولربما أراد الروائي بهذه الظاهرة شمول الوطن العربي كافة كون معتنقي المذهب الشافعي الذي يجيز ذلك ينتشرون في مصر وبعض البلدان العربية.

الانتخابات

إن الانتخابات وسيلة يتبعها سائر البلدان والعالم، هدفها ترشح العديد من الناس الذين يرومون الوصول لمناصب يسعون فيها لتمثيل غالبية الشعب وقد وردت في لسان العرب لابن

منظور "الانتخاب من فعل نخب، ونخب: أي انتخب الشيء اختاره، والنخبة ما اختاره منه ونخبة القوم ونخبتهم خيارهم، والنخب النزع والانتخاب الانتزاع والانتخاب الاختيار والانتقاء من النخبة". أما اصطلاحا فيعرف الانتخاب بأنه: "مجموعة من الاجراءات والتصرفات القانونية متعددة الاطراف والمراحل، يخضع بمقتضاها تحديد الهيئات الحاكمة العليا في الدولة لموافقة وارضاء المحكومين أصحاب السلطة الحقيقية في المجتمع".

في زحام السلطةِ تختفي الضمائر، وفي دهاليز القلوب يكمنُ الرياء يا بُني.. تختبئ الأنفسُ الملتوية بأقنعة النفاقِ.. نفاقٌ يراقبُ ويتربص، يترصدُ بأنيابهِ الحادة كظلٍّ مظلمٍ يترصدُ الأضواء.. نفاقٌ كضبابٍ ثقيل يلتفُّ حول الحقيقةِ، يخنقها ويخفيها خلف طبقاتٍ من الغموض.. يُغرق النفوس في بحر الأكاذيب.. يتسللُ تحت جُنح الرياء.. ليختبئ وينمو كداءٍ سامٍ في أعماق الأوجاع.. يراه الكثيرون، لا يعرفه إلا القلة.. لسانٌ يعزف على أوتار الكذب والافتراء.. يجففُ صفحات الصدق، لتتلاشى الحقيقة وتصبح كالورق المذبوح.. يتملصُ كالسمكة من بين الاصابع.. يرتدي قناع البراءة، وفي قلبه تنبض المؤامرة، ويخبئ في رأسه كنوز الخيانة.. في أروقة الرياء، يستلقي الصدق على فراش الموت.. يحتضر منذ وقت طويل.. رياء كغيومٍ سوداء تغطي السماء.. يحجبُ النور ويخفي الشمس عن الحياة.. كالوباء يجتاحُ القرية ويصيب النفوس بالتملق.. هكذا هو حال القوم. يحاول الروائي من خلال سرده البسيط الذي يغطي التشبيه كل مساحاته من توجيه دفة النقد الى كل العادات المتجذرة في أفكار المجتمع، فيسعى إلى تغطية كل ما له أثر واضحا في حياة الأفراد. إذ يتجه الآن الى السياسة وما الذي تخفيه خلف الأقنعة التي يرتديها روادها. إن رواد السياسة وأصحاب السلطة تختفي ضمائرهم ويستشري بينهم الرياء والكذب الذي يكون من الفضائل عندهم والأقل سوء فيصور الروائي للمتلقي بأن السياسة منجم من الفحم كل من اقترب له اسودت يداه وملابسه ووجهه.

والسبب يرجع ليس إلى رجال السلطة بل إلى أولئك الذين يتملقون ويعظمون من شأنه ويمتدحونه فيصاب رجل السلطة بجنون العظمة فيصبح كالذئب لافتراس النعاج كما وصفهم الروائي. وهي رسالة واضحة خاصة لمن يقرأ عنوان الفصل الذي ادرج تحت عنوان سياسة القطيع معللا سبب هذه السياسة إلى أمورٍ عديدة من ضمنها الجهل الذي ملء القرية وغياب الوعي والادراك الذين يعللهما سبباً أيضا، إلى سياسة القطيع التي يحاول فيها رجال السلطة بثها وتوسعتها ليتسنى لهم التمتع بأطول فترة ممكنة في السلطة.

الحرب

للحرب آثار كبيرة تترك في نفس من عاشها، وهي ذات أبعاد مختلفة سواء على المجتمع بصورة عامة والفرد بصورة خاصة إذ يمكنها أن تغير في أيديولوجية المجتمع وسيكولوجية الفرد. يصور الروائي البلدان التي تمر بالحروب وكيف يمكنها أن تغيير فكر جيل.

"ساحات الحرب تبدو كأرض مضرجة بألوان الفوضى والدمار.. تتساقط فيها أجساد القتلى كأوراق الخريف.. تبتلعهم أصوات السيوف كأفواه الوحوش.. سيوف تتكسر أمامها الدروع وتنحني الأعناق.. تسدل الستار على الأرواح، كأنها سفاحة القدر.. تمتطي الخيول على صهوة الموت.. خيول تتجاوز حدود المكان والزمان.. وتحمل على ظهرها شياطين الريح.. تهمس بأفكار مظلمة، وتختبئ في كل شيء يتأرجح مع الهواء".

يصور لنا الروائي عن طريق تقنية الوصف ساحات الوغى التي يكون فيها الفوضى والخراب هو اللون السائد إذ يمكن أن يقتل معظم من فيها ويتساقطون واحدا تلو الآخر بحرب ليست من اختيارهم وليس لهم فيها أي مبررات للقتل والتعذيب والتهجير سوى ما كتب عليهم من قادتهم الذين يبنون انتصاراتهم على دماء من قتل. وينتقل الروائي ليشير بأن الحرب هي معادلة خاسرة لكل الأطراف المتصارعة بدء من الجنود الذين يقتلون ويتركون خلفهم كوكبة من الأحباب الذين تبدأ حياتهم بالقتل وما يخلفه ذلك بالنفس "فقدت قدرتي على الكلام.. لم أعد أجد الكلمات التي تصف مدى الألم الذي ينتابني.. رحيله كعاصفةٍ تجتاح الروح وتترك خلفها الدمار والخراب ما أجمل تلك الأرواح، التي تبقى وفيةً حتى بعد الرحيل".. إلى مكان الحرب ليكون كومة رماد ومستودع للضحايا.

الخاتمة

اتضح للباحث إن الروائي استعمل أسلوب المضمون الأيديولوجي الباطن والظاهر عن طريق تصوير الحياة الاجتماعية، بما يتناسب مع الأحداث والتقاليد والعادات التي استشرت في المجتمع، لذا كانت الرواية بمثابة المرآة العاكسة للمجتمع العراقي، إذ اتخذت الرواية الواقع الاجتماعي مدارا لها، فحاول الروائي تقديم صور من الواقع الذي عاشه المجتمع، والوقوف على أهم الأحداث التي شاعت فيه، كما أنه اهتم بالشكل الفني بحيث جعل الشخوص واضحة ليلفت انتباه القارئ، فالرواية تستمد قوتها من الواقع باعتبارها تجسيدا لهذا الواقع، إذ جعل الروائي الواقع الاجتماعي ضمن خطابه الروائي وذلك رغبة منه في نقل الواقع بصدق ودقة، إذ لم يكن الروائي بمعزل عن هذا الحراك الاجتماعي، لذا كان نقله نقلا واقعيا يعطي صورة واضحة للمجتمع آنذاك، لذا أراد نقد هذا الواقع محاولة منه لقص جذور الحالات السلبية عن طريق رسالاته في الرواية، ليعالج هذه الحالات عن طريق مختلف فئات القراء. وختاما فإن هذه الرواية سلطت الضوء على أكثر الحالات شيوعا في المجتمع العراقي، إذ سعى الروائي جاهدا لمعالجتها وتناولها بأسلوب أدبي مميز.

Journal Of Babylon Center For Humanities Studies 2025 Volume :15 Issue : 6
(ISSN): 2227-2895 (Print) (E-ISSN):2313-0059 (Online)

الهوامش

[١] السياسة والأخلاق ، دكتور برهان غليون، مجلة الفكرة العربي، العدد ٢٢ أكتوبر ،١٩٨٩ طرابلس ص١٥٠
[٢] الشخصية، دراسة في علم الاجتماع النفسي، حسين عبد الحميد، أحمد رشوان، مؤسسة شباب الجامعة، ٢٠٠٦م ، ص٦٩.
[٣] علم إجتماع السياسة ، موريس دوفرجيه ، تر د.سليم حداد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت الحمراء لبنان ، ط١، ١٩٩١م ، ص٩.
[٤] قراءة الرواية ، مدخل إلى تقنيات التفسير روجر ب.هينكل، تر د.صلاح رزق، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة مصر، ٢٠٠٥م ، ص ٧٦.
[٥] المصددر السابق ، ص٧٧.
[٦] في نظرية الرواية ، عبدالملك مرتاض ، علم المعرفة ، الكويت، ١٩٩٨م ، ص٣٤.
[٧] فنون الأدب العالمي ، نبيل راغب، ص١٨٣.
[٨] تحليل النص السردي ، تقنيات ومفاهيم ، محمد بوعزة ، ص٤٠.
[٩] تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة ، شريبط أحمد شريبط ، ٣٦
[١٠] فن القصة ، أحمد أبو سعد ، ٣٠
[١١] الرواية ، ص ٤٣ .
[١٢] م ن ، ٤٨ .
[١٣] الرواية ، ص ٥٢ .
[١٤] الرواية ، ص ٥٠ .
[١٥] الرواية ، ص ٦٠-٦٢ .

المصادر

١- تحليل النص السردي، تقنيات ومفاهيم، محمد بوعزة.
٢- تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة، شريبط أحمد شريبط.
٣- السياسة والأخلاق، دكتور برهان غليون، مجلة الفكرة العربي، العدد ٢٢ أكتوبر ،١٩٨٩، طرابلس.
٤- الشخصية، دراسة في علم الاجتماع النفسي، حسين عبد الحميد، أحمد رشوان، مؤسسة شباب الجامعة، ٢٠٠٦م.
٥- علم اجتماع السياسة، موريس دوفرجيه، تر د. سليم حداد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت الحمراء لبنان، ط١، ١٩٩١م.
٦- فن القصة، أحمد أبو سعد.
٧- فنون الأدب العالمي، نبيل راغب.
٨- في نظرية الرواية، عبد الملك مرتاض، علم المعرفة، الكويت، ١٩٩٨م.
٩- قراءة الرواية، مدخل إلى تقنيات التفسير روجر ب. هينكل، تر د. صلاح رزق، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة مصر، ٢٠٠٥م.
1 - Narrative text analysis, techniques and concepts ,Muhammad Bouazza.
2- The development of the artistic structure in the contemporary Algerian story, Charbit Ahmed Charbit.
3- Politics and Ethics, Dr. Burhan Ghalioun, Al-Fikra Al-Arabi Magazine, issue October 22, 1989, Tripoli.
4- Personality, a study in psychological sociology, Hussein Abdel Hamid, Ahmed Rashwan, University Youth Foundation, 2006.
5- Sociology of Politics, Maurice Duverger, T.D. Salim Haddad, University Foundation for Studies, Publishing and Distribution, Beirut Al-Hamra, Lebanon, 1st edition, 1991.
6- The Art of Story, Ahmed Abu Saad.
7- Arts of World Literature, Nabil Ragheb .
8- On the theory of the novel, Abdul Malik Murtad, Epistemology, Kuwait, 1998.
9- Reading the Novel: An Introduction to Interpretation Techniques, Roger B. Hinkle, tr. d. Salah Rizk, Dar Gharib for Printing, Publishing and Distribution, Cairo, Egypt, 2005.